الفن في العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار(٩٠٠٠-٦٠٠٠ ق.م)

تنوعت الفنون في العصر الحجري الحديث بمختلف مراحله بين رسومات ونحت وتشكيل تماثيل من مختلف المواد الطبيعية من حجر وطين، ومثلت صوراً حيوانية وبشرية وتنوعت المواضيع التي مثلتها. وقد كان لهذه الفنون وآثارها التي خلفها الإنسان هذا العصر التأثير الأقوى في فهم المعتقد الديني في ظل غياب الأدلة الكتابية.

الصناعات الحجرية

كانت الصناعات الصوانية هي أقدم أشكال الصناعات التي أنتجها الإنسان منذ أقم العصور، لذا سمي العصور البشرية الأولى بالعصور الحجرية.وكانت أحجار الصوان وأحجار الأوبسيدين من أقدم أنواع الأحجار التي صنعها البشر. وتميز النوع الأخير منها بصلابته لذا أستخدمت شظاياه ذات الحافات الحادة في تقطيع اللحوم وسلخ جلود الحيوانات. ينظر الشكل الآتي :

أما النوع الآخر من الأحجار فهو الحصى، وهو متوفر بكثرة قرب ضفاف الأنهار ، وأمتاز بصلابته الشديدة، لذا من الصعب تشكيله وفق الحاجة، خاصة وأنه يتهشم أثناء عملية تصنعيه، لذا قلت الألات المستخدمه منه في تلك العصور.

من أبرز الأدوات والآلات الحجرية أدوات الحصاد التي كانت عبارة عن فؤوس يدوية كبيرة جيدة الصنع تستخدم للطعن والضرب. منها الفأس اليدوية على شكل لوزة أو ثمرة الكمثري التي صنعت من حجر الصوان، ويكون أحد جوانبها حاداً ومسنناً، وتستعمل للقطع أو لإخراج جذور النباتات. وهناك المجارش والمدقات والهاونات الحجرية، فضلاً عن الشظايا الحجرية الصوانية، مثل المقاشط والسكاكين والمثاقب ورؤوس السهام وغيرها، ينظر الشكل الآتي :

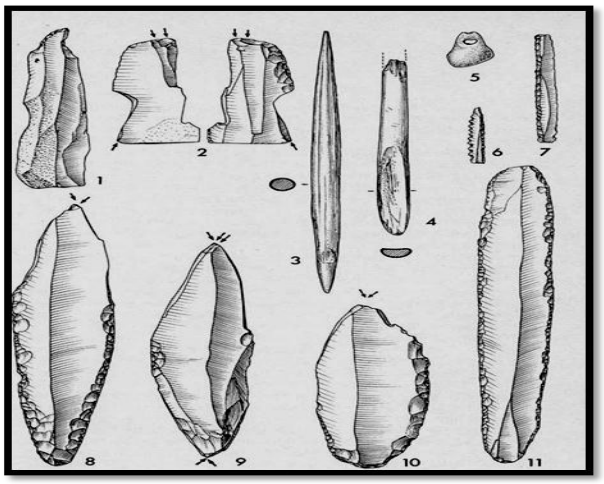

الدمى الحجرية

فضلاً عن الأدوات الحجرية هناك مجموعة من اللقى الفنية، كان من أهمها وأبرزها الدمى الصغيرة ذات الاشكال البشرية والحيوانية. الدمى الحيوانية منها كان أغلبها مصنوع للأطفال على نحو غير متقن ولا تتمتع بأية قيمة فنية. أما تلك التي تعتمد على الشكل الإنساني أو تتخذ صفت الإنسان فهي ذات مغزى ديني أو سحري يضعها في دائرة التماثيل المعبودة. وقد عثر على هذه الدمى بأشكالها المختلفة في معظم مواقع العصر الحجري الحديث.

والاكثر وروداً بالنسبة للتماثيل البشرية كانت الدمى الأنثوية، والتي كان الشكل العام لها ما عرف بالإلهة الأم. ويعد هذا الشكل الأنثوي أقدم نموذج فني يجسد الديانة في العصور الحجرية القديمة. وغالباً ما ظهرت بشكل المرأة العارية السمينة المكتنزة. وفكرة هذا التمثيل قديمة تعود بجذورها للعصور الأقدم في أوربا(الحجري القديم الأعلى).

للأسف فإن المواقع التي تمثل هذا العصر في العراق القديم لم يعثر فيها إلا على القليل من هذه النماذج، ولم تكن واضحة المعالم، لكنها ستظهر وبكثرة في مواقع العصر الحجري الحديث الفخاري التي سنتكلم عنه لاحقاً.

فمن موقع زاوي جمة شانيدار وعلى بعد حوالي ٣ أمتار من البقايا البنائية وجدت بقايا لجماجم ماعز وأغنام وعظام أجنحة لطيور كبيرة، يعتقد أن وجود أجنحة الطيور هذه قد يعكس نوعاً من طقوس وشعائر دينية. ومن خلال موجودات ولقى البناء رقم(١) أفترض أن لهذا البناء أو لجزء منه وظيفة خاصة قد تكون طقوسية.

وعثر في موقع نمريك على مجموعة من الرؤوس الطينية لحيوانات، منها مجموعة من ٢٠ منحوتة حجرية فريدة، صنعت من مادة الحصى النهري المتوفرة قرب الموقع. وتعد من أقدم أنواع النحت المجسم المعروفة من مواقع العراق القديم، نفذت بأسلوب واقعي بعضها غير مكتمل النحت، تظهر البراعة والمهارة العالية في النحت، وهي منحوتات صغيرة الحجم لا تزيد أطوالها عن ١٠ سم. ضمت هذه المجموعة تماثيل لنساء، فضلاً عن أشكال حيوانية ربما تمثل أفعى وأسد. ولكن الأكثر أهمية منها كانت مجموعة رؤوس طيور منها النسور والحباري. وتظهر هذه الرؤوس بأعناق طويلة ومجسمة. يحتمل أن هذه التماثيل كانت توظف لأغراض دينية، فهي ربما

تمثل آلهة محلية، أو أنها كانت استمرار لتقاليد عبادية كانت قد ظهرت في موقع زاوي جمة شانيدار كما أشرنا أعلاه. كما أنها تشبه وتماثل أدلة من مواقع في سوريا مثل المريبط وفي تركيا مثل موقع جعفر هويوك. أو يمكن أن تكون مجرد منتجات حرفيين محليين. ينظر الأشكال الآتية :

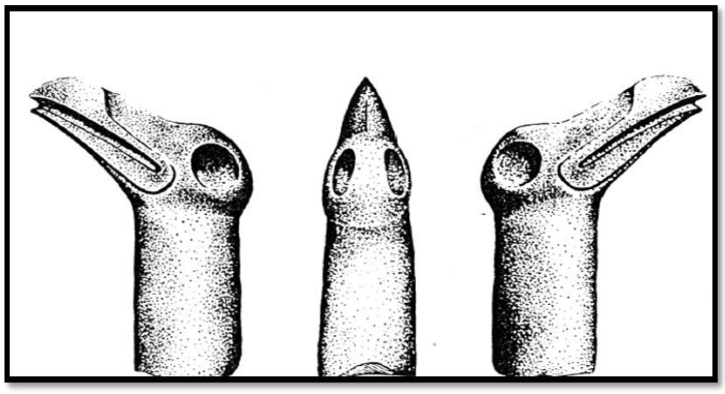

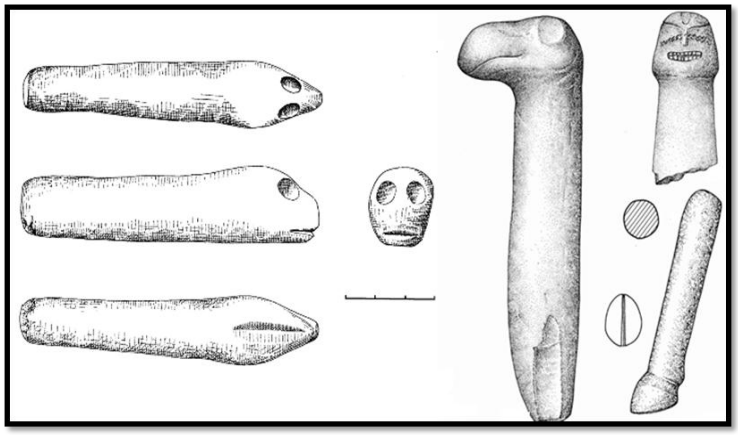

الفصل الثالث

الفن في العصر الحجري الحديث الفخاري (٦٠٠٠-٥٠٠٠ ق.م)

إن أهم ما يميز هذا العصر هو ظهور الصناعات الفخارية، التي شهدت ازدهاراً وتطوراً وانتشاراً على نطاق واسع، وكانت بأنواع وتقنيات مختلفة. فقد إنتشر الفخار على نطاق واسع في مناطق الشرق الأدنى. ويبدو أن إنتاج الفخار إقترن بشكل رئيسي بالاستقرار والزراعة، وبما أن الفخار مادة ثقيلة وقابلة للكسر ومن الصعب نقلها لذا فإنها كانت توجد حيث يستقر الناس. وكانت فترات الهدوء والتوقف عن العمل الزراعي تستغل بإنتاج الفخار، كما أن توفر القش بعد الحصاد يمثل حالة مثالية لعملية صنع الفخار.

حلت الصناعات الفخارية محل الصناعات الحجرية، واستعملت من قبل الباحثين كأدوات لتحديد المناطق الحضارية والكيانات الاجتماعية – الاقتصادية، بحيث أصبح الفخار هو الأداة الأساسية لوصف الزمن والمجتمع، وقد تطورت صناعته شكلاً وتقنية، فكان لكل طور ألوانه وطرزه وأشكال أوانيه، فأتخذ ذلك من بين الأسس التي أستند إليها في تقسيم هذا العصر إلى أطوار مختلفة، أشتقت أسماؤها من أسماء المواضع الأثرية التي وجدت فيها آثارها المميزة لأول مرة.

يشير عالم الآثار الروسي (فلاديمير غولاييف) إلى أن ذروة ثورة العصر الحديث تتسم قبل كل شيء بظهور أهم ثلاثة عناصر في حياة الناس: الزراعة وتربية الماشية (كـأساس للاقتصاد) والمستوطنات الدائمة، وصناعة الفخار.

الفخار

جاء اختراع الفخار بعد أن عرف الانسان إمكانية تصلب الطين عند تعرضه لحرارة النار. وخاصة بعدما أدرك أن الآواني الفخارية أخف وزناً من الآواني الحجرية ولسهولة صنعها وسرعة تحضيرها، وهي ذات مسامات تساعد على تبريد الماء إذا دعت الحاجة. وكان الغرض الأساسي من صنع الأواني الفخارية خزن الحبوب الفائضة من أجل إستخدامها عند الحاجة، ثم تطورت وتنوعت إستخدامات الفخار في الدفن وخاصة دفن الأطفال، وأستخدمت في الطقوس والشعائر الدينية مثل المجامر الفخارية لحرق البخور، وكذلك كهدايا جنائزية تحفظ مع الأموات، وفي الطبخ ونقل الماء وخزن السوائل المختلفة ونقلها بين المناطق المتباعدة، كما أستخدمت في عمل المخاريط على شكل مسامير فخارية ملونة تزين بها واجهات المباني الدينية، وأستخدمت كمناجل ذات جانب حاد يصلح لحصد الحبوب مثل القمح والشعير، وأستخدمت في صنع الدمى البشرية والحيوانية ولعب أطفال صغيرة وتماثيل صغيرة تمثل الآلهة، وغيرها من أوجه الاستعمال.

أهمية الفخار في الدراسات الأثرية

تكمن أهمية الفخار في كونه من المواد الاساسية التي لازمت الإنسان في مختلف مراحله الحضارية، لذا عده علماء الآثار واحداً من أهم المصادر الخاصة بدراسة هذه الحضارة. ولعب دوراً هاماً في تاريخ الحضارات، ولن تضاهيه في الأهميته بقية المخلفات الأثرية الأخرى. وتكمن أهميته في الدراسات الأثرية بما يلي :

١- يحدد أماكن المواقع الأثرية، وخاصة في مناطق الشرق الأدنى حيث ينتشر بكثرة واضحة يمكن أن تساعد في تحديد المواقع الأثرية، لذا تعد كسر الفخار المنتشرة على سطح التلال في الغالب مفتاحاً للتنقيبات الأثرية.
٢- تشكل الكسر الفخارية أو الخزفية الملتقطة من سطح التلال أهم الظواهر الأثرية المحتملة ليس فقط فيما يتعلق بالموقع ذاته، وإنما فيما يختص بتاريخه ايضاً، لأن كل عصر من عصور الحضارات القديمة، بدءاً من حضارات عصور ما قبل التأريخ وحتى العصر الإسلامي كان له فخاره وخزفه يميزه في غالب الأحيان عن بقية العصور، ومن هنا لعب الفخار والخزف دوراً هاماً في تأريخ هذه الحضارات، ولم ترق إلى أهميته أية مخلفات أثرية أخرى.
٣- يستفيد الآثاريون من ظاهرة إنتشار الفخار لمعرفة تتابع الحضارات في الأزمنة المتعاقبة، وباستطاعتهم أن يستخدموا نتائج هذا التعاقب لتـاريخ آثار مواقع أخرى يعثر فيها على فخاريات مماثلة إذا كان تاريخها مجهولاً.
٤- يستفيد من الفخار لدراسة هجرات الأقوام القديمة من مكان لآخر ولدراسة العلاثات التجارية فالاصناف الفخارية الدخيلة المصنوعة من طينة محلية أو طينة أجنبية التي يعثر عليها في مواطن الآثار دليل على هجرة سلمية إلى ذلك الموقع أو المكان أو إلى غزوة حربية مدمرة للموقع أو المكان.
٥- يساعد في دراسة عادات وتقاليد وأديان الشعوب من خلال دراسة الهدايا الجنائزية المقدمة في القبور. وكذلك شكل القبور أو التوابيت التي تحفظ فيها الجثث.
٦- يساعد في معرفة الفعاليات التجارية، ودراسة خطوط التجارة، وإنتقال البضائع بين مدينة وأخرى ودولة وأخرى من خلال ما يعثر عليه المنقبون من أشكال وأنواع الفخاريات الاجنبية غير الموجودة في ذلك البلد وخاصة الاشكال الفريدة ذات السمات المميزة. وقد أشرت فخاريات العبيد والوركاء حالة إنتشار هذه الحضارات في مناطق مختلفة من الشرق الأدنى مثل بلاد الشام وإيران والاناضول وسواحل الخليج.
٧- دراسة الأفكار الدينية والتقاليد التي تمارس أثناء الشعائر الدينية من خلال ما موجود على سطح الفخار من رسومات وزخارف، ودراسة دلالات تلك الرسوم.
٨- يساعد الآثاريون في معرفة تطور الفنون الجميلة وطرق الزخرفة والتلوين وتطور الاساليب الفنية المتداولة في تلك العصور كالاساليب الواقعية والتجريدية والرمزية وغيرها.
٩- يستفيد الآثاريون من دراسة نقوش الزخارف لمعرفة المستوى الفني للخزافين ولمعرفة علاقتهم بالآخرين، والتعرف على النقوش التي رسمها الخزافون القدماء لتجميل أوانيهم سواء كانت نقوشاً شكلية أو ملونة أو شكلية وملونة في آن واحد.
١٠- تستخدم الفخاريات في دراسة التطور الفني في عمل الفخار والأصباغ المستخدمة.

طرائق صنع الآواني الفخارية

كانت الأواني الفخارية في معظم عصور ما قبل التأريخ تصنع باليد إذ لم يكن دولاب الفخار قد أخترع بعد. وهناك ثلاث طرائق أستعملت في صنع الفخاريات، **الأولى هي الطريقة البدائية** وتتم بتحوير كتلة من الطين بالاصابع إلى الشكل المرغوب فيه إذ يفتح ثقب بابهام اليد في مركز الكتلة ثم تبنى الجدران بالثخن المطلوب بواسطة الضغط على جوانب الثقب ورفع هذه الجوانب بنفس الوقت إلى الأعلى بمساعدة الترطيب بالماء. وتبنى **بالطريقة اليدوية الثانية** الآنية الفخارية باقسام منفصلة كالقاعدة والجسم والعنق ثم توصل هذه الأجزاء ببعضها وتجرى تسوية جدرانها بالترطيب. ويتم بناء الآنية الفخارية **بالطريقة الثالثة** على هيئة لوالب من الطين إذ يوضع لولب فوق الآخر حتى الارتفاع المطلوب ثم تسوى سطوح اللوالب بالترطيب وبالضغط عليها، وفي المرحلة الأخيرة تضاف الملحقات كالقاعدة والعروة والمقبض والصنوبر وغيرها. ويظهر من فحص الأواني العراقية القديمة أن هذه الطرائق الثلاث أستخدمت من قبل الخزافيين، ومن المحتمل أنهم أستخدموا المسند والمضرب لتسوية وتعديل السطوح قبل أن تجف الأواني جفافاً تاماً. وبعد تحوير كتلة الطين إلى شكل آنية عميقة أو جرة أو صحن أو قدح أو أي شكل آخر تجرى عليها عدة عمليات منها الدلك والطلاء والتلوين والزخرفة وأخيراً التسخين.

الشكل أدناه يمثل طريقة عمل آنية فخارية في الوقت الحاضر: